

تدريب المعلمين: "الواقع والمرتجى"

التدريب ومواءمة المستجدات التربوية

جورج ن. نحّاس

أستاذ التربية في جامعة البلمند

٢٠٠٤

المدخل

من الطبيعي أن تكون عملية تأهيل الأساتذة من أجل امتهان جدّي للتعليم هاجساً أساسياً من هواجس الهيئات المعنية بالعملية التربوية ككل. في مجال التأهيل، يأخذ التدريب حيزاً هاماً للغاية وذلك نظراً لانعكاساته على نوعية الأداء من جهة واستمرار الرقي بالجودة التربوية من جهة أخرى. سأعالج موضوع التدريب من وجهة نظر الموازنة مع المستجدات التربوية في العالم اليوم. وستأتي مداخلتني مجزأة كما يلي:

- أهمية التدريب من وجهة النظر المعرفية
- الإشكاليات التي يطرحها التدريب على حيز الواقع
- الأسس المبدئية للمقاربات الحديثة في مجال التدريب
- أنواع التدريب
- خصوصيات مختلف أنواع التدريب

أهمية التدريب من وجهة النظر المعرفية

تتفق المدارس التربوية كافة في إعداد المعلمين على أهمية التدريب كجزء لا يتجزأ من العملية التأهيلية السابقة لامتحان التعليم. اختلف شكل التدريب بين مدرسة وأخرى باختلاف المقاربة المعتمدة للتربية ككل. لذلك يأتي التدريب كجزء أساسي من النهاية التربوية التي تعتمدها مدرسة تربوية معينة. فهو ليس نظاماً مستقلاً بحد ذاته لكنه أحد الأوجه التي تعرّف عن النهاية التربوية المعتمدة في نظام معين.

لكن رغم ذلك، ورغم الاختلافات القائمة، تبقى الأمور التالية مقبولة عند الجميع ولو اختلف حجمها ونوعها ومصداقيتها:

أ - التدريب سلسلة عمليات تربوية مترابطة ومتكاملة ومن المتوقع أن تمتد في الزمن وفق الحاجات والمستجدات التربوية. أكان التدريب عملياً أو مزيجاً من عمليات تنفيذية ونظريات جديدة، فهو يرافق المعلم في مسيرته المهنية حتى آخرها.

ب - جودة الأداء التربوي منوطة بجودة التدريب وفق منظور كل مدرسة تربوية لماهية الجودة. لذلك تصر كل مدرسة تربوية على اعتماد النظام التدريبي الذي يتماشى وخلفيتها النظرية.

ج - لا يقتصر التدريب على مبادئ عامة لكنه يتعداها إلى امتلاك تقانات محددة مرتبطة بالنهاية التربوية المعتمدة من ناحية وبمادة التعليم من ناحية أخرى.

لكن السؤال الذي يطرح علينا اليوم بالحاح هو: هل هذه الثوابت في مجال التدريب كافية لتؤمّن عملية تربوية صحيحة؟

إشكاليات التدريب في حيز الواقع

يدلنا الواقع على مفارقات تطرح على المشرفين التربويين أو المراقبين أو الباحثين جملة من الإشكاليات التي لا بد من التوقف عندها لإيجاد أجوبة عليها تسمح بالارتقاء بالأداء التربوي بشكل ملحوظ.

أ - أولى هذه الإشكاليات هي مدى ارتباط التدريب بالعملية التأهيلية بشكل واضح وكاف. يدلّ الواقع اليوم على أن عمليات التدريب كثيراً ما تكون موازية للعلم التربوي بعيداً عن أي تداخل جدلي بينهما. بعض المؤشرات في هذا المجال هي: مدة التدريب، زمن التدريب، موقع التدريب، تلازم التدريب مع المواد التعليمية إلخ.

ب - من ناحية أخرى قليلاً ما نجد عملية التدريب ممتدة في الزمن لترافق عملية التحسين المستمر لأداء الأستاذ المهني. في كثير من الأحيان يبقى

"التدريب المستمر" قليلاً ووفقاً على قلة ودون علاقة بمفهوم "الجودة". متى وجد تدريب كهذا، يختصر المستجدات على بعض التقانات الحديثة ولا ينظر إلى ما هو أبعد من التقانة في العلم التربوي وفي البناء المعرفي.

ج - بمراجعة عميقة لمضامين المناهج التأهيلية يظهر عدم ارتباط واضح للتدريب بالخلفيات النظرية. فالدفاع عن رؤية معينة للتربية وللعمل التربوي لا يرتبط بالوجه التقاني للتدريب. فصاحب الرؤية التربوية ليس بالضرورة هو المشرف على التدريب. هذا الوجه الأخير متروك لأصحاب الاختصاص، ما يوجد شرخاً عميقاً في بعض الأحيان بين المرجعية التربوية وبين الأداء المهني.

من هنا السؤال: هل من "شكل" للتدريب يسمح بجعله أكثر ارتباطاً بالأداء التربوي وبامتهان التعليم وبتأمين حد أدنى من الجودة؟

الأسس المبدئية للمقاربات الحديثة في مجال التدريب

كما قلت في المدخل وذكرت في العنوان، يهمني اليوم أن أربط التدريب بالمقاربات التربوية الحديثة. برأيي أنه إذا لم نسع جاهدين لمواكبة التيارات التربوية الجديدة فلن نستطيع أن ننهض جدياً بمجتمعنا وننطلق من وضعنا كبداية نام إلى موقع مشارك في التطور الحضاري الحاصل في العالم اليوم. الأسس المبدئية للمقاربات الحديثة قليلة وسهلة. لكن سهولتها هي من باب "السهل الممتنع" لأنها تحتم على ممتهن التربية أن يدخل في عالم جديد هو عالم التواصل والعمل الفريقي.

أ - هناك أولاً الموقف من "المعلومة". شكّلت المعلومة لزمن طويل محور التعليم الأساسي واقتصر عمل الأستاذ على نقل المعلومة والتأكد من امتلاكها كما أرادها. لم تخسر المعلومة مركزيتها، لكن خسرت حصريتها. فهي لم تعد مجال نقل وتطبيق، بل مجال اكتشاف ومعالجة. فحلت المعرفة مكان تكديس المعلومات.

ب - بسبب هذا التغيير غاب التلقين عن العلاقة بين المعلم والمتعلم. حلّ التفتيش عن المعلومة محل استقبالها الفوقي. فأصبح المعلم "ميسر" للعملية المعرفية، ليس إلا.

ج - ليس من معلومة غير مرتبطة بالخبرة، أي بالفعل. ولى تربويًا عهد الجلوس دون حراك على مقاعد الدراسة. وعلى المعلم كميسر للعملية المعرفية أن يجتهد لإيجاد الوضعيات التي تسمح بالعملائية من قبل المتعلم قبل الولوج في عملية التنظير. وهذا يعني في ما يعنيه مثلاً تغييراً جذرياً لما اتفق على أنه الطريقة الفضلى لتحضير "الدرس". وهذا مثل من بين الأمثلة العديدة الممكنة.

د - يمر بناء المعرفة بمراحل واضحة ومتتابعة ولا بد من التدرّب على خصوصية كل منها في هذا المجال. ولأن العملية التأهيلية عملية بناء، فهي تمر بمراحل واضحة ومتتالية سنة بعد سنة. ما لم يكن المعلم مستوعباً لعملية التتابع هذا ومتدرّباً على احترامها وتحضيرها، ستفشل العملية التربوية ولو بحسن نية المعلم. سأذكر دون تفاصيل عناوين هذه المراحل:

البنى

أدوات التواصل والاتصال

الأفاهيم والمسائل

ه - أخيراً وحتى يكون هذا البناء ممكناً وأداء المعلم متماسكاً لا بد من مقومات معرفية لمختلف عمليّات الأداء منها تقاني ومنها مرتبط بالشخص خاصة في عمله الفرقي ونوعية علاقته مع المتعلمين والأولياء.

أنواع التدريب

نتكلم على التدريب بالمفرد. ذلك فقط كأفهوم قائم على تحضير الشخص لامتحان التعليم حاضرًا ومستقبلاً. لكن لا بد من التأكيد على أن التدريب أنواع، وأن هذه الأنواع متكاملة وضرورية كلها.

أ - أول تدريب هو التدريب المتزامن والمتكامل مع عملية التأهيل الأساسية لمن يبتغي دخول سلك المعلمين. يطرح هذا النوع من التدريب إشكالات كثيرة إن من حيث ارتباطه بالمقاربة المعرفية، أو من حيث الوقت المخصص له، أو من حيث تجذره في الواقع المعيش تربيويًا. تختلف برامج التأهيل الموجودة في لبنان بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً للغاية. إنما الحاجة الماسة اليوم إلى قواعد أساسية واحدة تسمح بخلق جسم تعليمي متماسك يضمن تكافؤ الفرص للمتعلّم اللبناني كما يضمن تطويراً مهنيًا مستمرًا لكل من ينتمي إلى هذا الجسم.

ب - هناك أيضًا التدريب المستمر والموازي لتطوير أداء المعلم وهو في الخدمة. ومن المتوقع أن يوظف هذا التدريب خبرة المعلم ليطورها إيجابيًا ضئلاً بمصلحته وبمصلحة المتعلمين. لا يبدأ هذا النوع من التدريب بعد سنوات طويلة من العمل. بل على العكس هو يرافق المعلم منذ بداياته حتى يبني نفسه على نقدية ضرورية لأدائه ويكون تطوره المهني جزءاً من مهنته وليس دخيلاً عليها.

ج - التدريب الثالث الضروري غائب تمامًا عن الساحة التربوية اللبنانية. أعني به التدريب المتخصص في مجال المهن التربوية المساندة. فالفضاء التربوي المدرسي لا يقتصر على معلم وناظر ومدير. العملية التربوية في بعدها المعرفي هي أعقد من ذلك بكثير. لذلك لا بد من ولوج عملية التدريب على مهن تربوية مساعدة هي بعلاقة مباشرة مع علم النفس وعلم الاجتماع وعلوم الصحة وعلوم الإدارة فيصبح العمل المدرسي عملاً فريقيًا

ويكون المعلم حلقة من سلسلة متكاملة ترعى شؤون المتعلم بشكل كاف. إن لم يكن الأمر كذلك، ستبقى الفروقات الاجتماعية ضاغطة وتخلق في الوطن شرخاً خطيراً وغير إنساني.

د - هناك رابعاً التدريب على عملية التسيير التربوي وكثيراً ما نخلط بين التسيير والإدارة. فالإدارة جزء من التسيير لكنها لا تختصره. والضرورة الماسة اليوم هي في اكتشاف خصوصيات الإدارة التربوية والتسيير التربوي في آن. النمط القائم اليوم، والمسيّس للغاية، لا يسمح بإدارة علمية وتربوية للشأن التربوي لا على الصعيد المدرسي ولا على الصعيد المركزي. رغم أن التعليم الخاص قد تفوّق على التعليم الرسمي في هذا المجال يبقى أنه ليس من مؤسسة في لبنان اليوم تحضر بشكل منهجي لتحمل مسؤوليات كهذه.

ه - أخيراً هناك تدريب على الرقابة والتدقيق لضمان الجودة. ونحن نفتقد أيضاً هذا التدريب وقد استعضنا عنه بما أسميناه "التفتيش" وشئنا بين هذا وذاك. فالرقابة التي تبتغي ضمان الجودة هي رقابة حاضنة وليست رقابة بوليسية. هي رقابة لتبني وليست رقابة لتعاقب. هي رقابة شاملة متكاملة وليست رقابة مجزأة ومجزّئة. ليس في لبنان مقاربة لهذا الموضوع من هذه الزاوية.

خصوصيات مختلف أنواع التدريب

في ما يلي توصيف سريع لهذه التدريبات:

أ - التدريب الموازي والمتكامل مع التأهيل على التعليم

الهدف: امتلاك كافة مقومات "التعلمية" (Le Didactique)

المخرجات: ممتهن للتعليم قادر على:

تسيير العملية المعرفية العائدة إلى اختصاص معين و/أو إلى سن معينة

التأقلم مع المستجدات التربويّة العامّة والخاصّة
التعامل في جوّ تعاون فريقيّ من أجل إنجاز العمليّة التربويّة ككل
○ الخطة المعرفيّة: تأمين التكامل بشكل متوازٍ ومتوازن بين:
خبرة تكتسب في وضعيّات معيوشة
مؤهلات شخصيّة تنمو بفعل المناهج والمتابعة من قبل الأساتذة والمدرّبين
معرفة تمتلك من خلال مقاربة نقديّة وعلاقة دياكتيكيّة بين المعلومات
والواقع

ب - **التدريب المستمر المتزامن مع تطوير الأداء المهني**

الهدف: تطوير القدرات في مجال "التعلّميّة" (Le Didactique) والتسيير

المُخرجات: قيادات تربويّة قادرة على:

إدارة العمليّة المعرفيّة العائدة إلى اختصاص معيّن و/أو إلى فئة سن معيّنة

نقل المستجدات وتفعيلها في الإطار المدرسي

• تطوير العمل الفريقيّ

○ الخطة المعرفيّة: بناء المعارف الجديدة على:

• الخبرة المكتسبة الخاضعة للتقويم والنقد البناء

المؤهلات القياديّة الشخصيّة

المزيد من المعارف الجديدة والأبحاث الميدانيّة

ج - **التدريب المتخصّص في مجال المهن التربويّة المساندة**

الهدف: امتلاك القدرات الضروريّة للتعامل مع الواقع التربويّ ومساندته في:

التربية المتخصّصة

علم النفس التربويّ

علم الاجتماع التربويّ

المُخرجات: ممتهن للتربية قادر على:

تفهم خصوصيات الأوضاع المدرسيّة

•أقلمة معارفه حسب حاجة المجتمع التربويّ

•التعامل في جوّ تعاون فريقيّ من أجل إنجاز العمليّة التربويّة ككل

○**الخطّة المعرفيّة:** تأمين التكامل بشكل متوازٍ ومتوازن بين:

•خبرة ومعرفة متخصصة تكتسبان في وضعيات معيوشة

•مؤهلات شخصيّة تنمو بفعل المناهج والمتابعة من قبل الأساتذة والمدرّبين

د - **التدريب في مجال التسيير التربويّ العام**

الهدف: امتلاك القدرات الضرورية لتسلم مسؤوليات قياديّة في المؤسسات

التربويّة

○**المُخرجات:** مسؤول عن التسيير التربويّ قادر على:

•الإحاطة بكافة الوضعيات العائدة إلى المؤسسة التربويّة

•أقلمة معارفه حسب حاجة المجتمع التربويّ الذي يقع تحت مسؤوليته

•تمتين جوّ التعاون الفريقيّ من أجل إنجاز العمليّة التربويّة ككل

○**الخطّة المعرفيّة:** تأمين التكامل بشكل متوازٍ ومتوازن بين:

•خبرة ومعرفة متخصصة تكتسبان في وضعيات معيوشة

•مؤهلات شخصيّة تنمو بفعل المناهج والمتابعة من قبل الأساتذة والمدرّبين

هـ - **التدريب في مجاليّ الرقابة والتدقيق من أجل ضمان الجودة**

○**الهدف:** امتلاك القدرات الضرورية لتسلم مسؤوليات حسّاسة في مجاليّ

الرقابة والتدقيق

○**المُخرجات:** ممتهن للتربية قادر على:

- تفهّم خصوصيّات الأوضاع المدرسيّة
- أقلّمة معارفه حسب حاجة المجتمع التربويّ
- التعامل في جوّ تعاون فريقيّ من أجل ضمانة جودة الأداء التربويّ
- الخطة المعرفيّة: تأمين التكامل بشكل متوازٍ ومتوازن بين:
 - خبرة ومعرفة متخصصة تكتسبان في وضعيّات معيوشة
 - مؤهلات شخصيّة تنمو بفعل المناهج والمتابعة من قبل الأساتذة والمدرّبين

الخاتمة

- في النهاية، لا بد من التشديد ولو بسرعة على ما يلي:
- أ - ضرورة تكامل كافة أنواع التدريب المذكورة آنفًا كإحدى مقومات تصحيح النظام التربوي القائم.
 - ب - ضرورة التطابق في المقاربة التربوية من ناحية وفي السيرورات الاجرائية من ناحية أخرى.
 - ج - ضرورة الاتفاق على الأسس التربوية في لبنان بين كافة المسؤولين عن القطاع التربوي والمستفدين منه.
 - د - ضرورة وضع أنظمة تسييرية في لبنان تراعي مركزية في التنسيق ولا مركزية في التنفيذ.
 - هـ - ضرورة ربط الشأن التدريبي بالتخطيط والتنفيذ والمراقبة في آن آخذين بعين الاعتبار الخصوصيات اللبنانية.